إلى ماري سالم الخوري ... وسائر الأمهات

في اليوم الحادي والعشرين من شهر اذار من كل سنة تجدد الأمم الراقية ذكرى عذبة وادعة هي ذكرى الأم، وتحيي عيداً رمزياً هو عيد تلك المرأة العاملة في حقل التربية والتهذيب في صمت وتجرد ونزاهة، وتكرم تلك المجاهدة الحرة المندفعة في ميدان الواجب برغبة صادقة، وإخلاص غريزي مستمر.

تلك العاملة الصامتة المخلصة هي ام الكون، لأنها بانية الأسرة وبانية الوطن، لأنها موحدة ابطاله ومشجعة رجاله، وحارسة الفضيلة، لأنها الأستاذة الأولى في أولى مدارس الحياة، فمن تدييها يستمد الطفل عناصر البقاء والنمو، ومن عينيها الصافيتين يستجلي صور الطهارة، ومن بين شفتيها، يلتقط نغمات الرقة وايات الصدق والإباءة، وعلى ساعديها، يتلقى مبادئ التربية الصحيحة، ويتزود وسائل الفوز وأسباب النجاح.

والحق ان الأم أنبل مخلوق في الوجود، وافضل عضو في جسم المجتمع، فمن أعماق فؤادها ينبجس نبع الحنان، وفي احضانها تترعرع الفضائل وتشب المكارم الخلقية، وبقوة جلدها تبنى الحضارات، وترتفع صروح المجد والفخار.

الأم رمز التضحية، تبذل ذاتها في سبيل زوجها وأبنائها وبيتها، وتذوب في هيكل المحبة والعطف كما تذوب الشمعة، لا تشكو ولا تتململ، ولكنها تبتسم للعذاب وللمصعاب، لأن دافعاً خفياً يقويها ويشدد عزيمتها، ويوحي إليها ان رسالة الأمومة لا تخط الا بمداد هو مزيج من دموع ودماء.

سلحت الطبيعة الأم بعتاد يمكنها من الثبات، أمام هجمات الدهر، فالصبر وقوة المقاومة مستقران في أعماق نفس كل والدة ولولا ذلك لما ربي ولد، ولما تكونت أسرة فالعناء يُضني، ولكن الأم لا تبالي بالتعب، فهي تحمل طفلها الباكي ساعات طويلة ليسكت ويرضى ويبتسم ويعود إلى المناغاة. والسهر المتواصل انتحار بطيء، ولكن الأم تسهر كل ليلة وهي تهز سرير وليدها في رفق، وتنشده ارق النغمات ليَنام هانئاً منفرج القسمات.

وعندما يجتاز مرحلة الطفولة، تصبر على عناده، وتتحمل مضض طيشه، وتحول بينه وبين عصا ابيه، وكثيراً ما تصيبها تلك العصا وهي تدافع عن الولد العاق، فترضى بالضرب، وتإثر ان تتوجع هي، وأن يبقى ولدها في نجوة من الألم.

وأكثر ما يتجلى صبر الأم وحنانها، حين يركب ابنها نزق الشباب وجنون الصبا، وحين يتملكه الطيش والغرور، ويظن نفسه رب البيت وسيده المطاع، فيشتد ويستبد ويتحكم في أمه، فتجاريه وتداريه، خشية ان تخدش شعوره، أو تجرح كبرياءه، أو تُسيء إلى كرامته.

أجل، انها تفعل ذلك، وأكثر من كل ذلك، حباً براحة ولدها وفلذة كبدها، فالأم تقدّم نفسها على مذبح التضحية بلا تردّد إذا كان في فنائها بقاء ولدها وراحته وسعادته.

وقد أنشاد كثير من الكتاب والمفكرين والشعراء بتضحية الأم، وأشاروا إلى عطفها وحنانها بأقوال بليغة رائعة، فاسمعوا بعض ما قاله في الأم نابغة الشرق العربي جبران خليل جبران:

«إن أعذب ما تحدثه الشفاه البشرية، هو لفظة «الأم» وأجمل مناداة هي «يا أمي». كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف، وبكل ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعذوبة».

وقال نابوليون الأول:

«يمكنك ان تجعلني انسى كل ما تعلمت، ولكنك لا تستطيع أن تنسيني الكلمات الحلوة الممتعة التي كنت اسمعها من أمي العزيزة».

وقال أمير البيان شكيب أرسلان عندما عاد إلى وطنه لبنان بعد هجران طويل: «فرحت للقاء أمين: الأم التي ولدتني وأرضعتني وربتني، والأم التي ركضت على أرضها، وتسلقت جبالها، وتغذيت بهوائها، وهمت بحبها. فرحت للقاء والدتي وبلادي. وكنت أخشى أكثر ما أخشى وأنا في ديار المنفى، ان أموت بعيداً عنهما، فلا أشاهد بلادي، ولا ألثم يد والدتي».

وقال أمير القصة كرم ملحم كرم: «اتعرف من يريد لك الخير وان شقي، والراحة وان ذل، والعمر وان فني؟ هي أمك، أمك الأمة المطواع الساجدة أبداً بين يديك لتجيب مطلبك وان عز، فارشة خديها لموطئ قدميك».

وهذه حادثة واقعية تُشير إلى جلال الأمومة، وإلى سمو التضحية وروعة الفداء.

في اليوم الخامس من شهر آب ١٩٤٩، اصيبت جمهورية الاكوادور بهزة ارضية عنيفة ذهب ضحيتها نحو خمسة وعشرين ألفاً من القتلى والجرحى، وهدمت خمسون مدينة وقرية.

وكانت امرأة من الهنود الحمر، تحمل طفلها بين ذراعيها، حينما انشقت الأرض وابتلعتها. غير ان غريزة الأمومة، دفعتها للقيام بحركة سريعة كالبرق، نبيلة رائعة فيها أصفى معاني التضحية، وأعمق الحنو الوالدي، ذلك ان تلك الأم أحست بالخطر الداهم، فرفعت رضيعها فوق رأسها، وعلى نهاية انامِلها، وقد ابتلعت الأرض الأم الحنون وسحقتها عندما اغلقت الهوة. جرى الحادث المروع كلمح البصر، ولكن الطفل الرضيع بقي فوق يدين جامدتين حياً، دون أن يصاب بأذى، ولم يبق على المنقذين الذين أتوا من البلدان المجاورة سوى انتشاله في رفق كما تقطف الزهرة الفواحة من غصنها الرطيب.

إنني أحب أمي وافضلها حتى على زوجتي واولادي، لأنها حملتني جنيناً، وأرضعتني طفلاً، وحنت علي يافعاً، وهذبتني وزرعت في نفسي بذور المحبة شاباً وكهلاً. وعندما لبت نداء ربها، وغادرت هذا العالم الفاني، بقيت تدعو لي بالخير والتوفيق في كل صباح ومساء، وفي يقيني ان المولى يستجيب دعاءها، ودعاء كل أم صالحة تحب أبناءها وتخلص لأسرتها.

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه